المحاضرة الثانية: الآداب الشرقية القديمة

1- الأدب الهندي

تشترك الآداب الشرقية القديمة جميعها تشترك في أنها انتقلت شفاهة من جيل إلى جيل قبل أن تصل إلينا كما هي مدونة اليوم كما أنها - أعني الآداب الشرقية – قائمة في الأساس أو على ثلاثة أعمدة رئيسية تميزها هي : الظاهرة الدينية ، حضور الأسطورة ، والجنوح إلى الخيال .

نعني بالأدب الهندي ذلك الأدب الذي أبدعته قرائح الأدباء الهنود ليعبروا به عن مكنونات أنفسهم و ينشروا أفكارهم و يصوروا حياتهم و الأكيد أن الأدب الهندي - كغيره من آداب الأمم الأخرى - لم يخلق من عدم و لم يولد راشدا فقد خضع لسنن الطبيعة ونواميس الحياة ...

فقد مر هو الآخر كما يرى الدارسون و المهتمون بالآداب القديمة بمجموعة من المراحل يمكن تلخيصها كما يلي:

المرحلة الأولى :

كغيره من الآداب القديمة ارتبط الأدب الهندي القديم بالشفوية من جهة و الظاهرة الدينية التي سيطرت على تفكـــير الإنسان القديم من جهة أخرى يقول جبور عبد النور في هذا الصدد :" أسوة بعدد كبير من الآداب القديمة الأخرى أول ما ظهر في الأدب الهندي نصوص مرتبطة بشؤون العقيدة الدينية و الشعائر العائدة إليها و كانت في معظمها شفوية متنقلة سماعا من جيل إلى جيل ثم منتهية بعد التبديل و التعديل إلى الظهور في صفحات مكتوبة "

أهم ما يميز هذه المرحلة و يجب أن نقف عنده كتاب " الفيدا " و هو كتاب ديني هندوسي مقدس كتب كما يرى بعض الدارسين على مدى مئات السنين من 2500-500 قبل الميلاد. يقع هذا الكتاب في ثمان مئة مجلد و يضم أناشيد و تراتيل وضعت خصيصا لتحفظ و ترتل في المناسبات . و الفيدا كلمة تعني المعرفة بهذا الإطلاق ما يعني أن هذا الكتاب يتضمن كل ما يهم الإنسان الهندي في حياته في جميع نواحيها الدينية و الفكرية و الأخلاقية و الاجتماعية و الفلسفية ...و الأكيد أن كتابا بهذا الحجم و هذا التنوع لا يمكن أن نزعم أو نقتنع انه من تأليف رجل واحد بل هو نتاج لمجهود مجموعة من المؤلفين و على مدى أجيال متعاقبة و الأكيد أن ما هو متاح بين أيدي الدارسين اليوم لا يمثل إلا جزءا من الكتاب باعتبار أن القسم الأكبر منه قد ضاع مثلما ضاعت مؤلفات الأمم القديمة الأخرى.

المرحلة الثانية:

يمثل هذه المرحلة الأدب الهندي المكتوب باللغة السنسكريتية القديمة التي تعتبر أم اللغات الهندية المختلفة و الأدب الهندي في هذه المرحلة بقي مرتبطا بالظاهرة الدينية إذ ظهرت مجموعة من الكتب ذات الصبغة الدينية يأتي على رأسها " البراهمانا "

و البراهمانا كتاب يرتبط ارتباطا وثيقا بالفيدا إذ ألف خصيصا لشرح و تفسير ما جاء في كتاب الفيدا من التيمات و المواضيع التي يبدو انه بطول الزمن أصبحت مستعصية على الفهم و الاستيعاب، خاصة على العامة من الناس كما تضمن هذا الكتاب العديد من الأساطير كأسطورة الطوفان إضافة إلى كثير من الآراء الفلسفية و الحكم وقد تميز البراهمانا بطابعه الرمزي الشيء الذي لفت إليه انتباه الدارسين فانكبوا عليه بدراسات دينية و فلسفية عميقة .

المرحلة الثالثة:

تعود هذه المرحلة للقرن السادس قبل الميلاد تميزت بوضح أضخم و أشهر ملحمتين في الأدب الهندي و حتى العالمي أعني المها بهارتا و الرامايانا و قد تلتهما العديد من المؤلفات و التي تميزت جميعها بسيطرة الروح الدينية باعتبارها تركز الحديث عن تمجيد الآلهة و تعرض الأساطير المتعلقة بالأرباب و الطقوس المتعلقة بعبادتها و يبدو أن مؤلفات هذه المرحلة عرضت مادتها بأساليب عذبة و أفكار ماتعة أضفت عليها جمالا و سحرا شد إليها الأدباء و الدارسين فاقبلوا عليها و تعلقوا بها سواء القدماء منهم أو المحدثون.

المرحلة الرابعة:

تبدأ هذه المرحلة في القرن الثاني قبل الميلاد مرحلة تراجعت فيها سيطرة الروح الدينية فقد جنح الكتاب الهنود في هذه المرحلة الى الاهتمام و الحديث عن الأمور الدنيوية دون اختفاء تام لأمور العقيدة و الدين و مرد ذلك يعود إلى طبيعة الحكم الذي كان بيد ملوك "غوبا " الذين شجعوا النشاط الفني و الأدبي إلا أن اللغة الهندية السنسكريتية في هذه المرحلة مالت إلى التصنع و الاستعارات الموغلة في الغموض و كثر فيها الرمز الى الحد الذي أصبح من العسير الوقوف على المعاني و المقاصد عندما أصبح الأدب المكتوب بها عبارة عن رموز و طلاسم تحتاج إلى معين لفكها و فهم مضامينها ففقد بذلك الأدب صلته بالعامة و أصبح خاصا بأهل العلم و الاختصاص و رجال الدين ومن أشهر أدباء هذه المرحلة " كاليداسا " الشاعر الملحمي و المسرحي الذي كتب بالسنسكريتية و تميز برفعة أسلوبه و تنوع إنتاجه من ذلك راغوفامسا و مغادوتا و رقصة الفصول التي وصف فيها الفصول الستة في السنة الهندية .

2- الأدب الفارسي

لا يختلف اثنان في أن الأدب الفارسي هو أقرب الآداب إلى الأدب العربي و أكثرها تأثيرا و تأثرا به و الذي نعنيه بالأدب الفارسي ما أنتجته أمة الفرس و تركته من آثار إبداعية على مر التاريخ و التي يمكن تصنيفها ضمن دائرة الأدب، و الأمة الفارسية أمة قديمة عريقة في القدم ، لها تاريخها و حضارتها و ثقافتها الممتدة في أعماق التاريخ البشري، و مع ذلك فإنه لا يعرف اليوم عن الأدب الفارسي القديم إلا النزر اليسير الذي لا يتعدى بعض المنقوشات التي تعود إلى عهد الملوك الأخيميين الذين أنشأوا إمبراطورية فارس و حكموا في الفترة الممتدة بين 330/550 قبل الميلاد .

تعتبر اللغة الزندية أقدم اللغات في بلاد الفرس و لم يصلنا من النصوص المكتوبة بها إلا بعض الآثار أهمها " الأفاستا "

" الأفاستا "هو الكتاب المقدس عند إتباع الديانة الزرداشتية نسبة إلى زرداشت المؤسس الأول لهذه الديانة و الزرداشتية هي ديانة إيرانية قديمة، تمثل الدين الرسمي للإمبراطورية الأخمينية . يضم كتاب الأفاستا مجموعة من الأناشيد و التعاليم يعتبره الدارسون للآداب القديمة موسوعة تمثل أقدم وثيقة تبرز حضارة و ثقافة الفرس و علومهم و دياناتهم و تاريخهم و قوانينهم و طبيعة حياتهم من حيث أخلاقهم و عاداتهم و تقاليدهم ...انه بحق أحد المصادر المكتوبة في تاريخ الفرس إن لم نقل البشرية جمعاء.

بعد الفتح الإسلامي كان للدين الجديد و الذين حملوه ليبشروا به، تأثير عميق في بلاد الفرس في جميع النواحي ، فقد تأثرت اللغة الفارسية باللغة العربية تأثرا كبيرا فقد اعتماد الحرف العربي في كتابتها و استعارت كما هائلا من ألفاظها و حتى بعض تراكيبها، كما تأثر الناطقون بها بالدين الإسلامي و ببعض عادات و تقاليد الفاتحين.

و اللغة الفارسية الحديثة لغة تطورت عن اللغة الهندية و تأثرت باللغات الغربية ما يجعلها لغة هندية أوروبية البنية مكتوبة بالحرف العربي و لعل هذا ما يؤكد ما ذهب إليه بعض الدارسين أن الأدب الفارسي تلاقت فيه مجهودات أمم مختلفة و شاركت فيه شعوب كثيرة من عرقيات و أجناس مختلفة إلا انه و الحق يقال بقي محافظا على فارسيته من خلال الحفاظ على خصائصه التي تميزه عن غيره و التي يمكن إجمالها فيما يلي :

سيطرة الروح الدينية و الملحمية

السعي لإحياء القومية الفارسية

الزخرفة اللفظية

ارتباطه بالبلاط

عصورالأدب الفارسي:

يخص هذا التقسيم فترة ما بعد الفتح الإسلامي حيث سيطرت اللغة الفارسية الحديثة بعد حوالي قرنين من الزمن و يكاد الاتفاق يكون تاما بين مؤرخي الأدب حول تقسيم تاريخ الأدب الفارسي الى خمسة عصور .

عصر الخلفاء ة الممالك المحلية :

يغطي هذا العصر القرنين التاسع و العاشر الميلاديين فيه تمكنت اللغة الفارسية الحديثة من فرض نفسها على الحياة الأدبية و الرسمية وقد تأثرت هذه اللغة كما قلنا باللغة العربية فاقتبست منها الألفاظ و التعابير و المصطلحات وقد سعى الأدباء و الشعراء الفرس في هذه المرحلة من تاريخهم إلى إحياء القومية الفارسية و من أشهر رجالات هذه المرحلة المسعودي (957/896 م) الذي وضع النص الأول للشاهنامة معتمدا على كتاب الملوك المكتوب باللغة الفهلوية كما اشتهر في الشعر الرودكي (858 /940 م) الملقب عندهم بأبي الشعر الفارسي و هو من نظم كليلة و دمنة شعرا يضاف إلى الشخصيتين علي البلعمي (ت 975 م) الذي ترجم تفسير القرآن للطبري.

عصر السلاجقة

يمتد هذا العصر من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي فيه ارتقى الأدب الفارسي إلى مرتبة أعلى شأنا و ظهر فيه بشكل واضح الميل نحو التصوف و اعتماد الشعر التعليمي الذي اتخذه الشعراء وسيلة للتوجيه الديني و قد اشتهر في هذا العصر العديد من الشخصيات في مختلف الميادين منهم بابا طاهر المعروف بالعريان (1032/947 م) الشاعر الذي ألف رباعيات في المتصوف دعا من خلالها إلى اعتزال الخلق و البعد عن زخرف الحياة و التقشف في العيش.

كما اشتهر الرحالة ناصر خسرو (1088/1004 م) برحلته "سفر نامه " التي قادته إلى البلد العربية و كذاك سطع نجم الفردوسي (1020/932 م) الذي أتم الشاهنامة . ولا يمكن أن نتجاوز هذا العصر دون أن نذكر ابن مدينة نيسابور عمر الخيام (1050/ 1122 م) الشاعر و العالم و الفيلسوف صاحب الرباعيات.

عصر المغول

يحدد الدارسون و المهتمون بتاريخ الأدب الفارسي فترة هذا العصر بين القرنين الثالث عشر و الخامس عشر ميلادي و يعتبرونه ازهي مراحل هذا الأدب بل يصفونه بالعصر الذهبي نظرا لما شهده الأدب الفارسي من تطور خاصة الشعر الصوفي الذي كان ردة فعل على أوضاع سياسية و اجتماعية و دينية و من أشهر شخصيات هذا العصر الجويني ساحب كتاب جهانشكا و كذلك العطار (ت 1230) و سعدي الشيرازي (1193/ 1292 م) الشاعر و المتصوف الذي تميز بأسلوبه السلس الواضح و بقيمه الأخلاقية التي جعلت منه أكثر شعراء الفرس شهرة و قربا من النفوس.

عصر الاستقلال:

يغطي هذه العصر الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر في هذه المرحلة بدأ الأدب الصوفي يتجه نحو الضعف إذ أصابه ما لأصاب الأدب العربي و مع ذلك تألقت فيه بعض الأسماء كالهلالي (ت1533) الذي وضع مجموعات شعرية صوفية و الرحالة أمين الرازي الجغرافي الذي ألف العديد من المؤلفات أشهرها " هفت إقليم " أي الأقاليم السبعة و هي موسوعة ضمنها العديد من المعارف الجغرافية

العصر الحديث :

تميز هذا العصر بانفتاح الأدب الفارسي على الأدب الغربي فتسربت له النظريات الغربية المتنوعة و أثرت فيه تأثيرا واضحا إلى الحد الذي فقد بعض ملامحه الأصيلة و الملاحظ أن الشعر في هذا العصر تراجع و فسح المجال أمام النثر و لم نجد إلا القلة من الشعراء الذين يمكن أن يكونوا نجوما منهم الشاعر نيما يوشيج (1959/1897 م) الذي تأثر بالتيارات الحديثة و تمكن من مجاراتها لكنه بقي محافظا على أصالته و أما في ميدان النثر فقد اكتسحت الرواية الساحة الأدبية الفارسية خاصة الرواية الرومنسية التي اشتهر فيها كتاب أبدعوا في كتابتها منهم صادق هدايت(ت1951) مؤلف " البومة العمياء " و جمال زاده (1892/ 1997) الروائي المعارض الذي ألف "ذات يوم " في العام 1916 و "بيت المجانين " 1942.